

في هذا العدد

حين يتصالح العرب مع التاريخ

كل شيء بدأ في تونس، ثم اشتعل لهب الحرية في أرض العرب. كان يكفي لشباب تونسي يعمل بائعاً جوالاً أن يحترق في سيدي بوزيد كي تنتقل النار إلى مصر. في تونس كنا كلنا محمد البوعزيزي، وفي مصر صرنا كلنا خالد سعيد. من ميدان التحرير إلى ليبيا، ومن اليمن إلى البحرين، ومن الجزائر والمغرب إلى سورية، نظام كامل يتهاوى، وشعوب تتصالح مع نفسها ومع التاريخ. وحين يتصالح العرب مع أنفسهم ومع التاريخ تكون فلسطين، وتكون حريتها المشتهاة.

الثورات العربية المستمرة منذ أكثر من ثلاثة أشهر، تحمل مجموعة من الدلالات، وتشير إلى آفاق الحرية واحتمالاتها المتعددة.

تشير أولاً إلى أن العروبة ليست وهماً أو مجرد أيديولوجيا فارغة من المضامين. العروبة حقيقة تعلن نفسها على شكل ثورات مختلفة ضمن أفق واحد. يقظة العرب الجديدة هي يقظات متتابعة تهدف إلى بناء الأوطان على أسس ديمقراطية جديدة، كمقدمة ضرورية لإعادة بناء الأفق العربي بصفته أفقاً ثقافياً وسياسياً واقتصادياً.

ثورة واحدة متعددة الصوت، أو ثورات تتشكل كمتواليّة واحدة تتسع لإيقاعات مختلفة. هذا هو المعنى الجديد للعروبة، إنها فكرة ديمقراطية تتسع للتعدد، وتبني وحدة المنطقة من دون تعصب قومي أو انغلاق ثقافي.

وتشير ثانياً إلى أن الشعار الواحد الذي انطلق في تونس: «الشعب يريد إسقاط النظام»، والذي صار شعار الثورات العربية كلها، لا يحمل دلالة العدوى الإيجابية فحسب، بل يحدد الهدف بوضوح ومن دون مراوغة أيضاً. إن إسقاط النظام يعني تغييراً جذرياً ليس في البنية السياسية وحدها، بل في المستويين الأخلاقي والثقافي أيضاً. فالنظام الذي يجب أن يسقط هو نظام قائم على سلب الكرامة الفردية والجماعية، وعلى مافيات عائلية لا تحترف سوى النهب، وعلى بلاد مسوّرة بالسجون والقمع وانتهاك حقوق الإنسان.

لقد فقدت الأنظمة العربية شرعيتها السياسية والأخلاقية منذ أن تحوّلت إلى مافيات وأدوات قمع وعسف، ومنذ أن تخلت عن مهماتها كحامية للاستقلال الوطني، وتمادت في الانحناء أمام الاحتلال الإسرائيلي وجرائمه.

ثورة أخلاقية وثقافية ترفض الاستبداد وامتتهان الكرامة، وتؤسس لشرعية جديدة يصنعها الشعب بصفته المصدر الوحيد للسلطة.

ثوار ميدان التحرير في مصر الذين تبناوا الشعار التونسي، كانوا يعرفون أن النظام هنا ليس مطابقاً للنظام هناك، لكنهم فهموا أن سقوط ذلك لا يكتمل إلا بسقوط هذا. ومن هنا، فإن الثورات العربية تعرف أن مصيرها واحد، وأن الزمن الديمقراطي يجب أن يكون زمناً عربياً موحداً. وتشير ثالثاً، إلى قرار الشعوب العربية دخول حلبة التاريخ بعدما طردها الاستبداد من حقها في

تقرير مصائرها. والتغيير لا يعني سوى سريان قانون الزمن، وانتصار الحركة على الجمود. لقد استند النظام العربي بعدما فقد شرعيته إلى القوى الخارجية كي يستمدّ منها شرعية وهمية. وتجلت قمة اليأس في ذلك الافتراض المستند إلى بقايا الاستشراق، والذي يمثله برنارد لويس وبعض تلامذته من العرب غير النجباء، من أن العرب لا علاقة لهم بالديمقراطية، وأن عليهم أن يختاروا بين ديكتاتور قديم وديكتاتوريات جديدة لن تكون سوى أصوليات دينية. لقد ساهمت هذه الأفكار في إخافة العالم من العرب، وإخافة العرب من أنفسهم، وقادت في بعض الأحيان إلى خيانات ثقافية متمادية حاولت توظيف التنوير في خدمة الاستبداد!

وتشير رابعاً إلى دخول العالم العربي في القرن الحادي والعشرين. بل ربما كان هذا الدخول الذي تأخر عشرة أعوام، مقدمة تعيد العرب إلى خريطة العالم، ليس بصفتهم منتجين للنفط فقط، ولا لأن بلادهم الشاسعة عقدة جغرافية على المفترق الآسيوي - الإفريقي - الأوروبي فحسب، بل لأنهم باتوا أسياد مصيرهم، ويحق لهم أن يكونوا شركاء في عالم اليوم الذي يشهد ثورة الاتصالات والمعلومات وتداوي الحدود أيضاً.

إن الثورة الديمقراطية، فضلاً عما تحمله من قيم الحرية والمساواة والعدالة، هي السبيل الوحيد كي تستعيد الشعوب العربية حقها في أرضها، ووضعيتها كشريك في العالم، وليس مجرد تابع. وتشير خامساً إلى مفترق تحرري جديد، ولعل الموقف الإسرائيلي المصاب بالهلع من سقوط أنظمة القمع والنهب، يقدم لنا مؤشراً إضافياً إلى معنى هذا المفترق العربي. وقد لاحظ المراقبون أن شعارات الثورات العربية تقتصر على قضايا الحرية والديمقراطية، وأن الشعوب التي تجمعت في ميادين التحرير لم ترفع شعاراً قومياً واحداً، باستثناء بعض شعارات السخرية التي تعبر عن روح النكتة المصرية، حين رفع المتظاهرون شعار «ارحل» باللغة العبرية تخوفاً من أن يكون الديكتاتور المصري نسي لغته الأم، وتبني العبرية في سياق علاقاته الاستراتيجية مع إسرائيل؛ لكن المتظاهرين أنفسهم كتبوا الشعار ذاته بالأحرف الهيروغليفية، اعتقاداً منهم أن الرئيس الأبدي تفرّغ بحيث صار من الضروري مخاطبته بلغة الفراعنة!

وعلى الرغم من أن الشعارات من تونس إلى مصر إلى البحرين إلى اليمن إلى سورية بقيت في حدود الدعوة إلى الديمقراطية، فإن «الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» أبدت تعاطفها مع الديكتاتور، بل مارست ضغوطاً جدية من أجل بقاءه!

الأمر ليس سراً، فإسرائيل تترتاح للتعامل مع أنظمة لا تمتلك أي شرعية داخلية، وبذا تستطيع ابتزازها والهيمنة عليها. ومن هنا يأتي خوفها من الديمقراطية العربية، لأن الديمقراطية تعبر عن قرار الأكثرية الشعبية، وإسرائيل تعرف أن الشعوب العربية في انتفاضتها لكرامتها، لن تسمح للعريضة الدموية في الأراضي المحتلة بالاستمرار إلى ما لا نهاية.

أمّا في فلسطين ولبنان فإن الأمور تتخذ مساراً آخر يلتقي مع مسارات الثورات العربية انطلاقاً من خصوصيات الوضعين اللبناني والفلسطيني.

ففي لبنان ارتفع شعار إسقاط النظام الطائفي، لأن الطائفية هي سبب علل هذا الوطن الصغير، وسبب هيمنة أمراء الحرب على مصيره المعلق على حافة الحروب الأهلية.

وفي فلسطين ارتفع شعار إسقاط الانقسام. فالشعب الفلسطيني يعلم أن الانقسام بات الخطر الأكبر على وجوده وهويته الوطنية، وصار سلاحاً في يد الاحتلال من أجل ترسيخ الاستيطان الزاحف، وبناء نظام أبارتهايد متكامل الملامح. إن إسقاط الانقسام هو المقدمة الضرورية لإسقاط نظام

الاحتلال وكل من لا ذأو يلوذ به، كما أن بناء إطار لإعادة تأسيس أفق فلسطيني مقاوم جديد، ينهي زمن الفاسدين والمفسدين والمتسلطين من جهة، ويؤسس لمقاومة شعبية تعيد إلى اللغة نصابها، عبر النضال من أجل حرية الإنسان والأرض، من جهة أخرى.

* * *

يبدأ هذا العدد بملف عن العالم العربي الجديد الذي بدأ يولد، وقد شارك فيه كتاب من سورية وفلسطين وتونس ومصر والعراق، ونحن نأمل بأن يكون الملف بداية مناقشة فكرية لأبعاد التغيير الذي يعصف بالعالم العربي.

كما يتضمن العدد مجموعة من المقالات والدراسات والتقارير التي تعالج قضايا فكرية وسياسية مرتبطة بقضية فلسطين، وهي في مجموعها، محاولات لقراءة الواقع بأعين نقدية. وهنا نود أن نشير إلى أن تطوير مجلتنا بحيث تبقى مرجعاً فكرياً وثقافياً فلسطينياً وعربياً، مرتبط بالتفاف المثقفين والأكاديميين الفلسطينيين والعرب حولها، كمساهمين ومبادرين، كي تكون مجلتنا مختبراً فكرياً وصوتاً ينبض باحتمالات الحرية. ■

الياس خوري

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تاريخ فلسطين في طوابع البريد

مجموعة

نادر خيرى الدين أبو الجبين

طبعة ثانية مزيدة ومحدثة
٤٩٣ صفحة ١٠٠ دولار